خَصَائِصُ النَّصِّ الْقُرْآنِيِّ

المَوْضُوعِيَّةِ وَالْبَيَانِيَّةِ

احمد حسين خشان

ديوان الوقف الشيعي

فحوى البحث

يقرر السيد الباحث في بحثه: أن التعامل مع النص القرآني يقتضي النظر الى خصائصه جميعاً بعين التفكّر و التدبّر، فليس من الإنصاف أن يُتناول الموقف النقدي للنص القرآني ويخضعه لمناهد نقدية تعتمد القراءات النسبية والنظريات الوضعية المشحونة بالرؤى القبلية، في طرحٍ جزئيّ، ذلك أن النص القرآني، بهذه الخصائص البيانية والمعرفية والغيبية، لايعادله نص آخر، مهما كانت مرجعيته أو ثقافته او لغته، و إن محاولة تناوله مثل أي نص أدبي آخر، في قراءة معاصرة، تبدو مغالطة نقدية في التوجه والمنهج.

احتفى المفسرون والمعنيون بعلوم القرآن قديمًا[1]، وحديثًا[2] بتتبع الخصائص التي تميز بها النص القرآني، في لغته وأدبه وأسلوبه وبلاغته، فضلًا عن مصدره وحفظه واستمراريته، إذ يحمل هذا النص في ذاته أنظمة ثقافية ومعرفية تستجيب لما كان من ظرف تاريخي خاص بمرحلة العرب الأميين ليستمر باتجاه المستقبل عبر مختلف العصور بمناهجها وآلياتها المستحدثة، فالقرآن يمثل الوعي المعادل موضوعيًا للوجود الكوني وحركته الذائبة في الوجود الإنساني، إذ ((امتلك النص القرآني رؤية شديدة الثراء للوجود، وطرحَ تصورًا متميزًا لكينونة الإنسان في الزمن))[3].

(١) ينظر: الاعتقاد، أبو الحسين ابن أبي يعلى، محمد بن محمد (ت ٥٢٦هـ)، المحقق: محمد بن عبد الرحمن الخميس، دار أطلس الخضراء، ، ط١، ٢٠٠٢م، ٣٥؛ تفسير جوامع الجامع، الطبرسي (ت ٥٤٨هـ)، مؤسسة النشر الإسلامي، قم، ط١، ١٤٢٠هـ، ٢/ ٧٧٣؛ وشرح نهج البلاغة، ابن أبي الحديد (ت ٦٥٦هـ)، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، مؤسسة إسماعليان للطباعة والتوزيع والنشر، قم، ٩/ ٢٠٤.

(٢) ينظر: البيان في تفسير القرآن، -المدخل وفاتحة الكتاب -، أبو القاسم الخوئي (م. س)، ٤٠ وما يليها؛ وعي القرآن، محمد مهدي الآصفي، دار القرآن الكريم، قم، ط١، ١٤١١هـ، ١٥ وما يليها؛ خصائص القرآن الكريم، فهد بن عبد الرحمن بن سليمان الرومي، المديرية العامة للمطبوعات، الرياض، ط٩، ١٩٩٧م، ١٨ وما يليها؛ التفسير المنير في العقيدة والشريعة والمنهج، وهبة بن مصطفى الزحيلي، دار الفكر المعاصر، دمشق، ١٤١٨ هـ، ٢١، ١٢٧؛ النبأ العظيم نظرات جديدة في القرآن الكريم، محمد بن عبد الله دراز (ت ١٣٧٧هـ)، اعتنى به: أحمد مصطفى فضلية، دار القلم للنشر والتوزيع، الطبعة ٢٠٠٥م، ١٤١؛ فقه قراءة القرآن الكريم، أبو خالد سعيد عبد الجليل يوسف صخر المصري، مكتبة القدسي، القاهرة، ط١، ١٩٩٧ م، ١٧؛ كيف نتعامل مع القرآن العظيم، يوسف القرضاوي، دار الشروق، القاهرة، ط١، ٢٠٠٠م، ١٧ وما يليها؛ الإيمان بالقرآن الكريم والكتب السماوية، عَلي محمد محمد الصَّلاَّبي، المكتبة العصرية للطباعة والنشر، ط١، ٢٥؛ الموسوعة العقدية، مجموعة من الباحثين بإشراف الشيخ عَلوي بن عبد القادر السقاف، موقع الدرر السنية على الإنترنت dorar. net، ٣/ ٣٥٢.

(٣) النص القرآني من الجملة إلى العالم، وليد منير، المعهد العالمي للفكر الإسلامي،

الخصائص في اللغة جمع (خصيصة)؛ وهي الصفة التي تميز الشيء وتحدده[٤]، فالتواتر، والنزول منجمًا، وأنه آخر الكتب المنزلة على سبيل المثال من الخصائص التي يمتاز بها النص القرآني.

والخصائص في الاصطلاح؛ كل ما يتميز به النص القرآني من كل وجه عن الحديث النبوي، والأحاديث القدسية، وسائر الكتب السماوية فضلًا عن سائر كلام البشر[٥]، وثمة فرق بين خصائص النص القرآني وخواصه في المعنى الاصطلاحي، فالخصائص هي المميزات العامة للنص، والخواص تعني التأثير بمعاني النص القرآني من حيث جلب النفع، ودفع الضرر أو رفعه ونحو ذلك، فالخصائص أوسع وأعم من الخواص، والخواص من الخصائص، ولكن فيها زيادة معنى التأثير[٦].

خصائص النص القرآني عديدة ومتنوعة يضيق بها المقام، ويتعين على مسار البحث أن يقتصر على الخصائص التي تتعلق بموضوع الدراسة في تفاعل موضوعي مع القيم النظرية الوضعية في المناهج والقراءات التأويلية وتفنيدها بممارسة فعل القراءة والفهم في الموقف النقدي، والفصل بين ما يباح وما لا يباح من تأويل في النص القرآني[٧]، والتفاوت في العلم، وتصنيف حدود الفهم، وما ينتج عن ذلك أحيانًا اختلاف أو قصور في فهم الآيات لعدم الإحاطة بتمام ما يتعلق بالآية من أدوات الفهم[٨].

القاهرة، ط١، ١٩٩٧م، ١٥.

(٤) مفردات ألفاظ القرآن، الراغب الأصفهاني، ٢٨٤؛ المعجم الوسيط، مجمع اللغة العربية، القاهرة، إبراهيم مصطفى، أحمد الزيات، حامد عبد القادر، ومحمد النجار، دار الدعوة، ١/ ٢٣٨، مادة (خصص).

(٥) ينظر: علوم القرآن بين البرهان والإتقان، حازم سعيد حيدر، مكتبة دار الزمان، المدينة المنورة، ط١، ١٤٢٠هـ، ٢٤٦-٢٤٧؛ خصائص القرآن الكريم، فهد الرومي، المديرية العامة للمطبوعات، الرياض، ط٩، ١٩٩٧م، ١٣ -١٤.

(٦) ينظر: خواص القرآن الكريم، دراسة نظرية تطبيقية، تركي بن سعد بن فهيد الهويمل، دار ابن الجوزي، الدمام، ط١، ١٤٢٩هـ، ٣٠.

(٧) ينظر: القرآن والتفسير العصري، بنت الشاطئ، دار المعارف، مصر، ١٩٧٠م، ٤٦.

(٨) ينظر: فجر الإسلام، أحمد أمين، مكتبة

الخصائص الموضوعية:

الخصيصة الأولى: مصدرية النص القرآني[٩].

النص القرآني فريد من نوعه في نسبته ومصدره، فهو الكتاب الوحيد الذي يصرح أنه كلام الله المباشر لفظًا ومعنى قال تعالى: ﴿ وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ۝٣ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ ﴾[سورة النجم: ٣ – ٤]، في الدلالة على مصدر النص، إذ ((لم يشك البليغ في انتمائه إلى الجهة التي ينتمي إليها، ولم يرتب الأديب البارع في انتسابه إلى ما عرف من نهجه))[١٠]، أي أن النص سيكون شاهدًا دالًا على غائب، بمعنى أن يدل النص على منشئه أو فاعله[١١]، وهو الذات الإلهية المقدسة، في حين أن بقية الأديان تفصح بشكل جلي عن بشرية الألفاظ التي تعبر عن المعاني التي صدرت وحيًا، قال تعالى: ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴾[سورة الحجر: ٩]، وكذلك احتواء النص القرآني على قيم معرفية لم يكن للعرب اطلاع عليها، وتفرده بالتحدي للناس بأن يأتوا بسورة من مثله وعجزوا عن ذلك مع وجود الداعي لذلك قال تعالى: ﴿ وَإِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا۟ بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِۦ وَٱدْعُوا۟ شُهَدَآءَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴾[سورة البقرة: ٢٣]، وخلوه من الاختلال والتناقض والتحريف، قال تعالى: ﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ ۚ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا ﴾[سورة النساء: ٨٢].

النهضة، القاهرة، ط١٦، ١٩٧٥م، ١٩٧.

(٩) ينظر: اختصاص القرآن بعوده إلى الرحيم الرحمن، ضياء الدين أبو عبد الله محمد بن عبد الواحد المقدسي (ت ٦٤٣هـ)، المحقق: عبد الله بن يوسف الجديع، مكتبة الرشد، الرياض، ط١، ١٩٨٩م، ٢٤ وما بعدها؛ النبأ العظيم (نظرات جديدة في القرآن الكريم، محمد عبد الله دراز (ت ١٣٧٧هـ)، دار القلم، بيروت، ٢٠٠٥م، ٦٥ وما بعدها.

(١٠) إعجاز القرآن، أبو بكر محمد بن الطيب الباقلاني (ت ٤٠٣ هـ)، تحقيق: أحمد صقر، دار المعارف، القاهرة، ط٥، ١٩٩٧م، ٢٠٩.

(١١) ينظر: التأويل وقراءة النص في دراسات الإعجاز القرآني –دراسة في الهرمينوطيقا الأدبية الإسلامية، سرحان جفات، دار الينابيع، السويد، ط١، ٢٠١٠م، ٨٦.

الخصيصة الثانية: الأخبار الغيبية.

الغيب هو ما غاب عن الحس عند الإنسان، ولا يصل إليه الإدراك، وهو بعيد عن العلم الذي يبحث في الحس والمحسوس ((ومعنى هذا أن القرآن قد اشتمل على أخبار كثيرة من الغيوب التي لا علم لمحمدﷺ بها ولا سبيل لمثله أن يعلمها))[١٢]، ولأن الغيب في غاية التجريد، جاء في مفردات الأصفهاني: ((الغَيْبُ: مصدر غَابَتِ الشّمسُ وغيرها: إذا استترت عن العين... واستعمل في كلّ غَائِبٍ عن الحاسّة، وعمّا يَغِيبُ عن علم الإنسان بمعنى الغَائِبِ... وما لا يقع تحت الحواس، ولا تقتضيه بداية العقول))[١٣]، والغيب عند القرطبي: ((الْغَيْبُ فِي كَلَامِ الْعَرَبِ كُلُّ مَا غَابَ عَنْكَ... وَاخْتَلَفَ الْمُفَسِّرُونَ فِي تَأْوِيلِ الْغَيْبِ هُنَا، فَقَالَتْ فِرْقَةٌ: الْغَيْبُ فِي هَذِهِ الْآيَةِ: اللهُ سُبْحَانَهُ. وَضَعَّفَهُ ابْنُ الْعَرَبِيِّ. وَقَالَ آخَرُونَ: الْقَضَاءُ وَالْقَدَرُ. وَقَالَ آخَرُونَ: الْقُرْآنُ وَمَا فِيهِ مِنَ الْغُيُوبِ. وَقَالَ آخَرُونَ: الْغَيْبُ كُلُّ مَا أَخْبَرَ بِهِ الرَّسُولُ عَلَيْهِ السَّلَامُ مِمَّا لَا تَهْتَدِي إِلَيْهِ الْعُقُولُ مِنْ أَشْرَاطِ السَّاعَةِ وَعَذَابِ الْقَبْرِ وَالْحَشْرِ وَالنَّشْرِ وَالصِّرَاطِ وَالْمِيزَانِ وَالْجَنَّةِ وَالنَّارِ. قَالَ ابْنُ عَطِيَّةَ: وَهَذِهِ الْأَقْوَالُ لَا تَتَعَارَضُ بَلْ يَقَعُ الْغَيْبُ عَلَى جَمِيعِهَا))[١٤]، وتتعلق أُصول المغيبات في النص القرآني بمصداقية الأنباء والحوادث المهمة التي أخبر عن وقوعها النص في المستقبل، إذ ((أخبر القرآن الكريم في عدة من آياته عن أمور مهمة تتعلق بما يأتي من الأنباء والحوادث، وقد كان في جميع ما أخبر به صادقًا، لم يخالف الواقع في شيء

(١٢) مناهل العرفان في علوم القرآن (١ -٢)، محمد عبد العظيم الزُّرْقاني (ت ١٣٦٧ هـ)، مطبعة عيسى البابي الحلبي، القاهرة، ط٣، ١٣٦٢ هـ، ٢/ ٣٦٧.

(١٣) مفردات في غريب القرآن، الراغب الأصفهاني (ت ٥٠٢ هـ)، تحقيق: صفوان عدنان داوودي، دار القلم الشامية، دمشق-بيروت، ط١، ١٤١٢ هـ، ٦١٦.

(١٤) الجامع لأحكام القرآن -تفسير القرطبي-(١ -٢٠)، أبو عبد الله محمد بن أحمد بن أبي بكر بن فرح الأنصاري الخزرجي شمس الدين القرطبي (ت ٦٧١هـ)، تحقيق: أحمد البردوني وإبراهيم أطفيش، دار الكتب المصرية، القاهرة، ط٢، ١٣٨٤هـ -١٩٦٤ م، ١/ ١٦٣.

منها، ولا شك في أن هذا من الإخبار بالغيب، ولا سبيل إليه غير طريق الوحي والنبوة))[١٥]، ومن أهم موضوعات الغيب؛ الإخبار عن الله سبحانه، وأسمائه وصفاته، والإخبار عن الملائكة والجن وعالم البرزخ والمعاد وما فيه من نعيم أو جحيم لترسيخ قيم الإيمان والتوحيد ((وما التوكيد القرآني على وحدة الغيب سوى محاولة برهانية لإقناع العقل))[١٦]، وأكثر من ثلث النص القرآني يلتمس المعاني الغيبية، إذ أن ((هناك (٣٦) عنوانًا لسور تلتمس صفات الغيب وظواهره العجائبية والنبوية))[١٧]، الّتي لا يتعرّف عليها الحسّ، ولا تقع في أُفقه في هذا الظرف، فهل يمكن للإنسان أن يلم بعالم الغيب؟. هل في طاقته أن يتعرف على ما ورد في القرآن الكريم من مسميات مثل الوحي والأمر، والعرش والكرسي، والقلم واللوح المحفوظ، والصراط المستقيم، والجن والملائكة؟. والحق أن الإنسان ليس له أن يطمع في معرفة ما لم يفطر أساسًا على إمكانية إدراكه؛ ذلك أن كل ما يمكن للإنسان إدراكه إنما هو ما أتاه من قبيل معطيات الحواس التي وهبها الله إياها، ولما كانت حواس الإنسان قاصرة دائمًا وخادعة أحيانًا، فإن مدركات الإنسان الذاتية لا بد أن يصيبها الفتور والقصور والاضطراب والتغيير، وكذلك الإخبار عن بعض النواميس السائدة على الكون، وقد كانت مغيّبة، عند نزول الوحي، عن إدراك الحواس المجرّدة عن الأدوات المخترعة في هذا الزمان، وهو من جهة المعارف الكونية المستكشفة حديثًا والإخبار عن أُمم قد خلت من قبل وطويت صفحات حياتها، فأصبحوا ممّا لا يرى حتى آثار مساكنهم ومواطنهم، من دون مراجعة إلى كتب السير والتاريخ، أو سؤال الكهنة والمؤرخين، وهي القَصص الواردة في النص القرآني، الّتي تشكّل جزءًا كبيرًا منه.

(١٥) البيان في تفسير القرآن، أبو القاسم الخوئي، دار الزهراء للطباعة، بيروت، ط٤، ١٩٧٥م، ٦٧.

(١٦) جدلية القرآن، خليل أحمد خليل، دار الطليعة، بيروت، ط١، ١٩٧٧م، ١٠٢.

(١٧) ينظر: (م. ن)، ٨٢.

الخصيصة الثالثة: نص محفوظ.

إن النص القرآني مجيد لا يبلى مع متغيرات الزمان والمكان: قال تعالى: ﴿ بَلْ هُوَ قُرْءَانٌ مَّجِيدٌ ﴾[سورة البروج: ٢١]، وأنه كريم بمعنى تجدد العطاء: قال تعالى: ﴿ إِنَّهُۥ لَقُرْءَانٌ كَرِيمٌ ﴾[سورة الواقعة: ٧٧].

وهو كتاب مكنون قابل لأن يتكشف عن جديد وفق معطيات الحياة قال تعالى: ﴿ فِي كِتَٰبٍ مَّكْنُونٍ ﴾[سورة الواقعة: ٧٨]، فعلاقة النص القرآني بالبيئة وأسباب النزول هي علاقة النسبي بالمطلق، فهو يزخر بكل جديد بما يتماهى مع المتغيرات على خلاف النص الذي يتجمد في قالبه، جديد كأنه في مرحلة التنزيل، تصديقًا لقول الرسول ﷺ: ((لا تنقضي عجائبه، ولا يخلق من كثرة الرد))[١٨]، أربعة عشر قرنًا من الزمان ولا يزال النص القرآني والأفواه، مادة للأقلام ومسرحًا للعقول، ومجالًا للدرس والبحث والتحليل، وشريعة لمئات الملايين من البشر من شتى الأجناس والأعراق، ولو كان النص القرآني من كلام البشر لفرغ الناس منه، كما فرغوا من كل نص آخر مهما بلغت عظمته وروعته[١٩]، وقد تضمن هذا الذكر ما جاء في الكتب السماوية السابقة عليه من التوراة والإنجيل، محفوظًا بالهيمنة القرآنية على تلك الكتب[٢٠]، ولهذا جاء حفظ الذكر كله في النص القرآني، قال تعالى: ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴾[سورة الحجر: ٩]،

(١٨) ينظر: تخريج الأحاديث والآثار الواقعة في تفسير الكشاف للزمخشري، جمال الدين أبو محمد عبد الله بن يوسف بن محمد الزيلعي (ت ٧٦٢هـ)، المحقق: عبد الله بن عبد الرحمن السعد، دار ابن خزيمة، الرياض، ط١، ١٤١٤هـ، ١/ ٢١١؛ كنز العمال، المتقي الهندي (ت ٩٧٥هـ)، المحقق: بكري حياتي، مؤسسة الرسالة، بيروت، ١٩٨٩م، ٥٢٦.

(١٩) ينظر: كمال اللغة القرآنية، محمد محمد داود، دار المنار، القاهرة، ط٢، ٢٠٠٧م، ٢٤٩.

(٢٠) ينظر: تصديق القرآن للكتب السماوية وهيمنته عليها، إبراهيم عبد الحميد سلامة، الجامعة الإسلامية، المدينة المنورة، السنة الثانية عشرة، العدد السادس والأربعون -ربيع الآخر- جمادى الأولى- جمادى الثانية، ١٤٠٠هـ/ ١٩٨٠م، ٧٩ وما يليها.

ويرى السيوطي أن هذه الآية حديث عن النص القرآني بوصفه ((محفوظًا من الزيادة والنقصان، محروسًا عن التبديل والتغيير على تطاول الأزمان بخلاف سائر الكتب))[٢١]، وهذا تأكيد على نزول الوحي بالكتب السابقة لمعرفة مدى الارتباط بين الوحي والتنزيل، واتخاذ النص القرآني مرجعًا لضبط ما كان من وحي سابق قال تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ﴾[سورة النحل: ٤٤].

الخصيصة الرابعة: الوحدة الموضوعية في النص القرآني.

ومن خصائص النص القرآني، الوحدة المنهجية الموضوعية في النص القرآني ((البحث عن القضايا الخاصة التي عرض لها القرآن الكريم في سوره المختلفة ليظهر ما فيها من معانٍ خاصة تتعلق بالموضوع العام الذي نبحثه لنحقق الهدف وهو الوحدة الموضوعية في القرآن الكريم، ولنضرب مثلا في التشريع (تحريم الخمر، فإنا نجد أن القرآن الكريم تعرض لها في أربع سور وفي كل سورة كان له معنى وغرض، فإذا جمعنا هذه القضايا ورتبناها حسب النزول بعد بحثها وفهمها والوقوف على سر نزولها لخلصنا من ذلك كله إلى أن موضوع تحريم الخمر الذي ذكر في أربع سور يكون وحدة موضوعية تامة كاملة هي تحريم الخمر تحريمًا كاملًا، وإنما سلك القرآن في هذه مسلك التدرج والتربية الحكيمة، ولو نظرنا إلى مسألة القتال، أو الربا لرأيناها كذلك))[٢٢]، في تحليل للخصائص المفهومية والفنية للنص بتمامه من خلال تشخيص النسيج العضوي الذي تنتظم في سياقه الفقرات بمجموعها، فتشكل وحدة موضوعية، تشي بدلالات إضافية لا يحكيها التناول

(٢١) معترك الأقران في إعجاز القرآن، ويسمى إعجاز القرآن ومعترك الأقران (١ -٣)، عبد الرحمن بن أبي بكر، جلال الدين السيوطي (ت ٩١١هـ)، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٤٠٨هـ-١٩٨٨م، ١/ ٢٧.

(٢٢) الوحدة الموضوعية في القرآن الكريم، محمد محمود حجازي، دار الكتب الحديثة، القاهرة، ١٩٧٠م، ٣٣-٣٤.

الجزئي للنص[٢٣]،...

وثمة علاقة بين حفظ النص القرآني والوحدة المنهجية الموضوعية التي حكمت بنائية هذا النص، وهذه دلالة واضحة على تعهد الله بحفظه وصيانته، وقرينة في إعادة ترتيب مواضع الآيات خلافًا لما كان عليه الترتيب المتوافق مع أسباب النزول، وكذلك تميز النص القرآني (بنسقية) مصطلحاته و(سياقية) نصوصه، واشتماله على نظام مفهومي موضوعي متناسق الأطراف مترابط العرى متكامل الفصول.

الخصائص البيانية:

يمتاز النص القرآني بالنظم البياني، ويرى السيوطي (ت ٩١١هـ)؛ أن قوانين الامتياز تنحاز للنص القرآني دون غيره من الأنماط التعبيرية الأخرى في طريقة نظمه المخالف، فيقول: ((بيان كون النظم معجزًا يتوقف على بيان نظم الكلام، ثم بيان أن هذا النظم مخالف لما عداه عن النظم))[٢٤]، ويعد هذا الأسلوب المغاير جديدًا على أساليب العرب ((فكان إبداع أسلوب جديد يختلف عن أساليبهم على لسان نبي أمي- عليه أفضل الصلاة والسلام))[٢٥]، فقد اشتمل على أفصح ألفاظ العربية وأعذبها في تركيب الكلام وما يتضمنه من المعاني ((إن إعجاز القرآن لاشتماله على تفرد الألفاظ التي يتركب منها الكلام، مع ما تضمنه من المعاني، مع ملائمته التي هي نظوم تأليفه))[٢٦]، وإن هذه الألفاظ وإن كانت معهودة استعملها العرب قبل الإسلام وبعده؛ إلا أن النص قد فاق جميع الأساليب اللغوية في لغة العرب

(٢٣) ينظر: الاتجاهات الحديثة في التفسير، عبد الجبار الرفاعي، مجلة قضايا إسلامية معاصرة، بيروت، ع/ ٤، ١٩٩٨م، ١٣.

(٢٤) معترك الأقران في إعجاز القرآن، السيوطي، ١/ ٥.

(٢٥) الفوز الكبير في أصول التفسير، الإمام أحمد بن عبد الرحيم المعروف بولي الله الدهلوي (ت ١١٧٦هـ)، عَرَّبَه من الفارسية: سلمان الحسيني النَّدوي، دار الصحوة، القاهرة، ط٢، ١٩٨٦ م، ١٦٥.

(٢٦) البرهان في علوم القرآن (١ -٤)، بدر الدين الزركشي (ت ٧٩٤ هـ)، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، دار إحياء الكتب العربية، القاهرة، ١٩٥٧م، ٢/ ١٧٤.

((جمال القرآن اللغوي تلك الظاهرة العجيبة التي امتاز بها القرآن في رصف حروفه وترتيب كلماته ترتيبا دونه كل ترتيب ونظام))[٢٧]، وما ذاك إلا لحسن السبك وروعة التأليف ((إِعْجَازِ النَّظْمِ الْمُبِينِ مَا أُودِعَ مِنْ حُسْنِ التَّأْلِيفِ وَبَرَاعَةِ التَّرْكِيبِ وَمَا تَضَمَّنَهُ فِي الْحَلَاوَةِ وَجَلَّلَهُ فِي رَوْنَقِ الطَّلَاوَةِ مَعَ سُهُولَةِ كَلِمِهِ وَجَزَالَتِهَا وَعُذُوبَتِهَا وَسَلَاسَتِهَا وَلَا فَرْقَ بَيْنَ مَا يَرْجِعُ الْحُسْنُ إِلَى اللَّفْظِ أَوِ الْمَعْنَى))[٢٨].

تخطى النص القرآني ما جرت عليه عادة العرب فيما ائتلفوا عليه من ضروب الكلام من شعر ونثر ورسائل وحكم وأمثال، وعن طريقة النص القرآني يقول الرماني: ((فأتى القرآن بطريقة مفردة خارجة عن العادة، لها منزلة في الحسن تفوق به كل طريقة))[٢٩].

تتآلف أصوات الألفاظ في النص القرآني في سبك محكم في المعنى والدلالة، وكذلك التراكيب؛ متلاقية منسجمة مع بعضها، وتحدث تأثيرًا نفسيًا ووجدانيًا ((بنظام القرآن الصوتي اتساق القرآن وائتلافه في حركاته وسكناته ومداته وغناته واتصالاته وسكتاته اتساقًا عجيبًا وائتلافًا رائعًا يسترعي الأسماع ويستهوي النفوس بطريقة لا يمكن أن يصل إليها أي كلام آخر من منظوم ومنثور))[٣٠]، واللفظة في النص بصيغتها وأصوات حروفها وإيقاعها قد اختيرت لتؤدي معنى بعينه فلا بديل لها، ولا نائب عنها، ولا مرادف في البنية الكلية للنص، ومن دونها يختل المعنى وتضطرب الدلالة، وفي ذلك يقول ابن عطية: ((إذا ترتبت اللفظة في القرآن علم بإحاطته أيَّ لفظة تصلح أن تليَ الأولى، وتَبيَّنَ أن المعنى بعد المعنى: ثم

(٢٧) مناهل العرفان في علوم القرآن، الزرقاني، ٢/ ٣١٢.

(٢٨) البرهان في علوم القرآن، الزركشي، ٢/ ٣٨٢.

(٢٩) النكت في إعجاز القرآن -مطبوع ضمن ثلاث رسائل في إعجاز القرآن -، علي بن عيسى بن علي بن عبد الله، أبو الحسن الرماني المعتزلي (ت ٣٨٤هـ)، تحقيق: محمد خلف الله أحمد، محمد زغلول سلام، دار المعارف، مصر، ط٣، ١٩٧٦م، ١١١.

(٣٠) مناهل العرفان في علوم القرآن، الزرقاني، ٢/ ٣٠٩.

كذلك من أول القرآن إلى آخره))[٣١].

ويمكن التعرف على أساليب النص القرآني اللغوية والبيانية في قول الزركشي الذي لا يُختزل: ((فَمِنْهُ التَّوْكِيدُ بِأَقْسَامِهِ وَالْحَذْفُ بِأَقْسَامِهِ الْإِيجَازُ التَّقْدِيمُ وَالتَّأْخِيرُ الْقَلْبُ الْمُدْرَجُ الِاقْتِصَاصُ التَّرَقِّي التَّغْلِيبُ الِالْتِفَاتُ التَّضْمِينُ وَضْعُ الْخَبَرِ مَوْضِعَ الطَّلَبِ وَضْعُ الطَّلَبِ مَوْضِعَ الْخَبَرِ وَضْعُ النِّدَاءِ مَوْضِعَ التَّعَجُّبِ وَضْعُ جُمْلَةِ الْقِلَّةِ مَوْضِعَ الْكَثْرَةِ تَذْكِيرُ الْمُؤَنَّثِ تَأْنِيثُ الْمُذَكَّرِ التَّعْبِيرُ عَنِ الْمُسْتَقْبَلِ بِلَفْظِ الْمَاضِي عَكْسُهُ مُشَاكَلَةُ اللَّفْظِ لِلْمَعْنَى النَّحْتُ الْإِبْدَالُ الْمُحَاذَاةُ قَوَاعِدُ فِي النَّفْيِ وَالصِّفَاتِ إِخْرَاجُ الْكَلَامِ مُخْرَجَ الشَّكِّ فِي اللَّفْظِ دُونَ الْحَقِيقَةِ الْإِعْرَاضُ عَنْ صَرِيحِ الْحُكْمِ الْهَدْمُ التَّوَسُّعُ الِاسْتِدْرَاجُ التَّشْبِيهُ الِاسْتِعَارَةُ التَّوْرِيَةُ التَّجْرِيدُ التَّجْنِيسُ الطِّبَاقُ الْمُقَابَلَةُ إِلْجَامُ الْخَصْمِ بِالْحُجَّةِ التَّقْسِيمُ التَّعْدِيدُ مُقَابَلَةُ الْجَمْعِ بِالْجَمْعِ قَاعِدَةٌ فِيمَا وَرَدَ فِي الْقُرْآنِ مَجْمُوعًا تَارَةً وَمُفْرَدًا أُخْرَى وَحِكْمَةُ ذَلِكَ قَاعِدَةٌ أُخْرَى فِي الضَّمَائِرِ قَاعِدَةٌ فِي السُّؤَالِ وَالْجَوَابِ الْخِطَابُ بِالشَّيْءِ عَنِ اعْتِقَادِ الْمُخَاطَبِ التَّأَدُّبُ فِي الْخِطَابِ تَقْدِيمُ ذِكْرِ الرَّحْمَةِ عَلَى الْعَذَابِ الْخِطَابُ بِالِاسْمِ الْخِطَابُ بِالْفِعْلِ قَاعِدَةٌ فِي ذِكْرِ الْمَوْصُولَاتِ وَالظَّرْفِ تَارَةً وَحَذْفِهَا أُخْرَى قَاعِدَةٌ فِي النَّهْيِ وَدَفْعِ التَّنَاقُضِ عَمَّا يُوهِمُ ذَلِكَ وَمِلَاكُ ذَلِكَ الْإِيجَازُ وَالْإِطْنَابُ))[٣٢].

جاء النص القرآني متنوعًا في توجيهاته، ووجوه خطابه، نظرًا لاختلاف المخاطبين في أحوالهم ومستوياتهم، وتعدد الأغراض التي قصد إليها، والمواضيع التي عالجها، والحقائق المختلفة التي كشف لهم عنها.

ويمكن القول بأن للنص القرآني طابعه الخاص، وأسلوبه المفارق عن جميع الأساليب العربية[٣٣]، بما تضمنه من خصائص جمة سمت به عن كل أنواع الكلام.

(٣١) معترك الأقران في إعجاز القرآن، السيوطي، ١/ ٢٧ -٢٨.

(٣٢) البرهان في علوم القرآن، الزركشي، ٢/ ٣٨٣.

(٣٣) ينظر: من روائع القرآن -تأملات علمية وأدبية في كتاب الله عز وجل -، محمد سعيد رمضان البوطي، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط١، ١٤٢٤ه -٢٠٠٣م، ١١١.

وبيان ذلك أن لكل علم من العلوم، وفن من الفنون طريقة خاصة في التعبير، وكذلك لكل متكلم وكاتب منهج خاص به وأسلوب متميز في التعبير عن مقاصده وأغراضه، يختلف به عن غيره.

وأنسب ما يقال في تعريف أسلوب القرآن أنه: الطريقة الخاصة التي انفرد بها النص القرآني في إفادة المعاني بالألفاظ، أو هو ((الطريقة التي انفرد بها في تأليف كلامه، واختيار ألفاظه))[٣٤]، إن هذا التعريف ينطبق على الأسلوب النص القرآني لأنه يُفرده عن غيره من الأساليب في كونه ((نسيج وحده في لغته وبيانه ونوعه الغني))[٣٥]؛ فلا يماثله أسلوب ((وعلى هذا فأسلوب القرآن الكريم هو طريقته التي انفرد بها في تأليف كلامه واختيار ألفاظه ولا غرابة أن يكون للقرآن الكريم أسلوب خاص به))[٣٦].

امتاز أسلوب النص القرآني ببراعة تعبيره وسلامة منطقه وقوة استدلاله وحسن بيانه ودقة تصويره ((أول ما يتسم به أسلوب القرآن هو الفخامة والقوة والجلال))[٣٧]؛ وكان من ذلك أن جمع ما بين إقناع العقل وإمتاع العاطفة ((وفي النفس قوتان: قوة تفكير، وقوة وجدان))[٣٨] في آن واحد ((تنشأ من جمال التعبير ودقة التصوير خاصة أخرى هي قوة التأثير في العقول والقلوب معًا، فالقرآن الكريم يخاطب العقل والعاطفة، ولا يخاطب العقل وحده، لأنه ليس كتاب فلسفة يقف عند حدود المقدمات، واستنتاج النتائج، في أسلوب متقعر أو جاف متحجر))[٣٩].

(٣٤) التعبير الفني في القرآن الكريم، بكري شيخ أمين، دار العلم للملايين، بيروت، ط٧، ٢٠٠٤م، ١٨٣.

(٣٥) أسرار التشابه الأسلوبي في القرآن الكريم، شلتاغ عبود، دار المحجة البيضاء، بيروت، ط١، ٢٠٠٣م، ٩.

(٣٦) مناهل العرفان في علوم القرآن، الزرْقاني، ٢/ ٣٠٣.

(٣٧) من بلاغة القرآن، أحمد أحمد بدوي، نهضة مصر، القاهرة، ط٥، ٢٠٠٨م، ١٨٦.

(٣٨) النبأ العظيم، محمد عبد الله دراز (م. س)، ١٤٨ وما بعدها.

(٣٩) دراسات في علوم القرآن، محمد بكر إسماعيل، دار المنار، القاهرة، ط٢،

وجمع أسلوب النص القرآني في فصاحته وبلاغته وبيانه بين جميع مزايا الشعر والنثر العربي من تآلف واتساق وتنغيم بين الآيات والفواصل، ليؤدي هذا التنغيم وظيفة بيانية تسهم في وعي النص وفهمه، بله الحديث عن خصائص الأسلوب للنص القرآني في القصد في اللفظ، والوفاء بحق المعنى، ومخاطبة العامة والخاصة من الناس، والبيان والإجمال[٤٠]، فالنص القرآني متفرد، مغاير، استثنائي في جميع جوانبه النصية المتعالية ((لم يعرف التاريخ في عمره الطويل كتابًا أحيط بسياجات من العناية والرعاية مثل ما عرف ذلك للقرآن الكريم، ولا كتابًا ثبت في جملته وتفصيله بالتواتر المفيد للقطع واليقين مثل ما عرف ذلك للقرآن الكريم، ولا كتابًا أوجب الله حفظه على الأمة كلها غير القرآن الكريم، ولا كتابًا سلم من التحريف والتبديل غير القرآن الكريم))[٤١].

(٤٠) ينظر: خصائص التعبير القرآني وسماته البلاغية، عبد العظيم المطعني، مكتبة وهبة، القاهرة، ط١، ١٩٩٢م، ١٦٥ وما يليها.

١٩٩٩م، ٣٣٨ - ٣٣٩.

(٤١) المدخل لدراسة القرآن الكريم، محمد بن محمد بن سويلم أبو شُهبة (ت ١٤٠٣هـ)، مكتبة السنة، القاهرة، ط٢، ٢٠٠٣ م، ٣٨٦.